آراء في الادب والعمران

للمرحوم الدكتور صروف

وذكريات شخصية من قلم الامير شكيب ارسلان

ليس المرحوم الدكتور يعقوب صرُّوف يحتاج الى تأبين احدٍ لهُ بنظم او نثر ولا إلى ترجمة احد لحياته في كتاب او مجلة او جريدة سيارة . وكيف يحتاج الى تأبين أو إلى ترجمة من مئات اجزاء من المقتطف الحافل باعظم الفوائد واوسع المعارف منذ خمسين سنة تؤبنهُ وتنشر مآثرهُ . حتى لو قيل إن الدكتور صرُّوف عنوان للرقي العلمي في الشرق او انهُ هو بنفسه حقيقة كلية من جملة الحقائق التي يعنى الناس بالاطلاع عليها لترقية عقولهم لكان بذلك جديراً . وماذا عسى ان يقول الكاتب في مَن قال مدة نصف قرن بدون انقطاع — قال وابدع في المقال وكتب وصدق الرواية وحرر ونصح في التحرير وعلم وعمل عا علم ورقي أعلى مراقي الاطلاع التي امكنت مفكراً في هذا العصر وهو لا يرى نفسهُ شيئاً وكلما ازداد علماً ازداد تواضعاً وكلما عجب الناس من سعة علمهِ عجب هو من كونهم يرونهُ عالماً . وهـذا هو شأن العالم المحقق والفيلسوف الكامل الذي لا يزيدهُ تبطن اسرار الكون والتوغل في عالم الحقائق الاَّ معرفة بعجز الإنسان وبانهُ لم يؤت من العلم الاَّ قليلاً . ولقد قرن الدكتور صروُّف الى هـذا العلم الواسع والنظر النافذ والقلم الساحر خلقاً عظيماً قلما تحلى بهِ احدٌ كما كانت فطرتهُ الاصلية جوهراً غالياً صافياً فجاءها صقال العلم المستمر مدة سبعين سنة كمالاً . فاصبحت تلك النفس الزكية درة وهاجة من جميع نواحيها تكاد تأخذ بالابصار . ولسري ان نعمة العلم لا تتم الاَّ اذا ظهر في النفس فبعد ان يكون العلم نظريات وآراء يتجسم حركات واعمالاً . فتجد العلم الذي في مثل العلامة صروف قد لبس رداء الحياة وعقل بجنان ونطق بلسان واعرب عن ذات نفسهِ ببرهان . ولا عجب ان يكون العلماء الذين على نمط الاستاذ المرحوم ذوي نفوس تجول في آفاق هي أعلى من آفاق سائر الناس لانهم ينظرون إلى الاشياء لا من وراء حجب الاوهام ولا من خلال عوائق العلائق بل من أقرب الطرق وأوضحها وابعدها عن الاهواء . فبينما سائر الخلق لا يرون شبحاً الاَّ من دون ضباب ضلال ولا يتمثلون مادة الاَّ من خلال غواش مختلفة الاشكال يكون نظر هؤلاء العلماء الى الامور سواء كانت مادية او معنوية نظر الذي تجرد عن كل غاشية

وابصر الحق بعين صافية . فلهذا كنت ارى في اخلاق الطيب الذكر يعقوب صرُّوف من السجاحة والمباحة والنزاهة والعلو عن سفساف الامور والتزام معاليها ما لا اجده الاَّ في النادر الاندر من البشر ولاشك انهُ اذا كان اعلى افق من الناس متصلاً باقرب أفق من الملائكة فيكون فقيدنا طيب الذكر في الفوج الاول من الآدميين الفارطين الى ذلك الافق العالي

كنت في الخامسة عشر من العمر عند ما وقع نظري على الدكتور صرُّوف لاول مرة في حياتي وذلك في ادارة احدى جرائد بيروت وكان صاحب تلك الجريدة وهو اليوم في عالم البقاء يسأل الدكتور عن لفظة « ميناء » ومأخذها ومعناها فأخذ الدكتور يفسر لهُ هذه الكلمة ويذكر لهُ اشتقاقها ومواضع استعمالها وتاريخها من الكلام العربي فدهشت مما سمعت وعرفت مع حداثة سني يومئذٍ مزية العالم على الجاهل او المتعالم وقلت في نفسي : انظر الى هذا الرجل كيف سرد عن لفظة واحدة بسيطة جوابها يقع في كلمة واحدة عبارة طويلة لا تجد فيها مع طولها حشواً ولا حرفاً زائداً ولا ناقصاً . إن مثل هذا العالم لهو الذي ينبغي ان تشد اليهِ الرحال . وزاد إعجابي بما سمعت من العلم وما شهدت من اللطف والتواضع وانكار الذات وعدم الصنعة في كيفية الالقاء الذي سمعتهُ

ولم تساعدني الاقدار ان اشاهد الفقيد بعد ذلك الاَّ سنة ١٨٩٠ حينما قدمت الى مصر اول مرة وكنت في سن العشرين فدعاني اصحاب المقتطف الى الغداء عندهم وتذاكرنا في مواضيع كثيرة ولا يزال لتلك الزيارة اثرٌ منطبع في اعماق نفسي . ثم اتيحت لي مجالسة الفقيد مرة اخرى وكنت من قبل ذلك اكتب بعض المقالات الى المقتطف وكان المرحوم يستحث همتي في مواصلة الكتابة العلمية وقال لي مرة من ذاق لذة العلم يجد الكتابة في السياسة إسفافاً لا تطيب به نفسهُ . ولكنهُ كان كسائر العقلاء يرى انهُ لا بد من بعض الامور في هذه الحياة ولو أتاها الانسان مكرهاً

وكانت المكاتبة قلما تنقطع بيني وبين الاستاذ وانا في بعض الاحايين أراسل المقتطف ولي فيهِ مقالات وجل كان تواضع المرحوم يحملهُ لا على نشرها فحسب بل استزادتي من امثالها . وكانت المحبة بيننا بلغت من الخالصة انهُ كان يستشيرني في امور تتعلق بمنهج المقتطف والمواضيع التي ينبغي ان ينوخاها ومرة ارادني على ان اكتب بصورة مستمرة وان اجد للمقتطف مراسلين يصح الاعتماد على علمهم وبلاغتهم فجاريتهُ بأني افضل ان اكون في الكتابة حرًّا غير مقيد بزمن ولا عدد وان لا اتقاضى على ذلك

شيئاً ولكنني استجدت لهُ اقلام فضلاء مشهورين راسلوا المقتطف بعد ذلك سنين طوالاً وكان منهم الاستاذ الشرتوني طيب الله ثراهُ والاستاذ كردعلي رئيس المجمع العلمي العربي الذي كنت انا الواسطة في مراسلته للمقتطف وكانت هذه المجلة من مناير رقيه ومظاهر نبوغه . ومن هؤلاء المرحوم محمد ابو عز الدين رئيس محكمة استئناف الجزاء في لبنان الذي لولا منصبهُ القضائي لامتع قراء المقتطف باكثر جدًّا مما انتج لهُ

ولما جئت مصر للمرة الثانية وذهبت منها الى طرابلس الغرب وذلك منذ سبع عشرة سنة اسعدني الحظ ايضاً بملاقاة الفقيد رحمهُ الله . وهذه آخر مرة تلاقينا بها لان الشواغل حالت دون كثرة الاجتماع وكنا من اهل بلاد لا تزال من حرب الى حرب فكانت السياسة المقوتة تحول بيننا وبين من نهوى لقاءهم من جلة العلماء الذين الساعة من عشرتهم تزن الايام الطوال من عشرة سواهم . ثم جاءت الحرب العامة فانقطعت المواصلات كلها وبقينا لا يعلم الواحد عن الآخر شيئاً إلاَّ من افواه القادمين حتى اصيب المرحوم بفقد احد اخوته فارسلت اليهِ بكتاب تعزية وجاوبني عليهِ واستؤنفت بعد ذلك المراسلة بيني وبينهُ عوداً على بدء . واني انقل الى القراء بعض اسطر من جوابه لان روحهُ الطاهرة تتجلى في جميع كتاباته وكلام المرء مرآة كماله قال:

«تناولت مساء امس كتاب التعزية الذي تكرمتم علي به فزادني ابتهاجاً بفضلكم وافتخاراً بصداقتكم واعتزازاً بحبكم ولقد اراني مرت اخي ما لا استحقه من كثرة الاصدقاء والمحبين على تقصيري مع الجميع كما انه اخذني بقرب الاجل وانا شديد التشوق اليه لعلي ادرك شيئاً من الكثير الكثير الذي اجهله»

فلينظر القارىء ما بلغ من هذا الرجل حب العلم حتى اصبح يتوقع الموت بلذة المنتظر من وراء هذه الحياة حياة اخرى أوسع علماً واصح حكماً

ثم انه يقول : «من غريب الاتفاق اني قرأت ما كتبتموه في مجلة المجمع عن كتاب «بي» في المساواة قبيل وصول كتاب التعزية بساعات قليلة . والمساواة مقالات نشرت اولاً تباعاً في المقتطف ثم جمعت وطبعت كتاباً على حدة فراقني جداً وسكنت له وارجح انها لم تترجم شيئاً ترجمة لانها تتكلم معي في كل المواضيع الادبية والفلسفية كما تكتب فانها قوية الفاكرة الى حد يفوق التصور وقد قرأت كثيراً من الكتب في اللغات التي تحسنها الفرنسوية والانكليزية والايطالية حتى لقد تستشهد في كلامها معي بآيات من شكسبير أو بيرون كما تستشهد بالمتنبي والمعري وحفظت ايضاً كثيراً من قصائد شوقي والمطران وحافظ واظنها تصوغ معانيها في ذهنها بالفرنسوية او الانكليزية قبلما تعبر عنها بالفاظها العربية والظاهر ان الذي طبع الكتاب من مقالات المقتطف غير فيها بعض الالفاظ فسرها ولقد اصبتم واحسنتم بوصفكم للكتاب وكاتبه واستنتاجها »

ولما ترجمت كتاب « أناطول فرنس في منزله » أحببت أن اطلع عليهِ المرحوم

الاستاذ وأعرض عليه نشره في المقتطف اذا شاء . فاستحسن الفكرة أولاً واشار إليَّ بارسال الكتاب حتى ينشرهُ في عدة أعداد من المقتطف ثم يجمعهُ كتاباً على حدة . وكنت قد رأيت فيما نقلهُ « جان جاك بروسون » عن اناطول فرانس كثيراً من الرفث والمجون مما حذفت منهُ شيئاً ولطفت شيئاً ولذت في اشياء منهُ بالمعاريض وظننت ذلك كافياً في تجريد الكتاب مما ينبو عنهُ نظر الادب وتحمر لهُ وجنة الخفر . واذا بالاستاذ يقول لي :

« الى ان اطلعت على ما بعثتم به الي من « الماذل » كنت احسب الرجل شيخاً جليلاً كبعض الذين عرفتهم في حياتي كفاديك والبستاني واليازجي (يريد استاذه الدكتور فان ديك التبشيري والمعلم بطرس البستاني والشيخ ناصيف اليازجي) لكن الماذل صورته لي كاحمد فارس الشدياق كما عرفته في « الساق على الساق » ثم رأيته بعد ذلك في مصر . ولا أرى ان كاتب سر أناطول فرانس أحسن في بعض ما نشره عن استاذه وقد أوصينا ان نذكر حسنات موتانا . فهل من حسن الذوق في هذا العصر ما كتبه عن (الهيجان والظلمة) وما رواه عن (الصبابات الاولى) و (الخيانة والعجز) . لو كنا في عصر صاحب الاغاني لالتمسنا له عذراً بآداب العصر

«أما عصرنا هذا لاسيما بين المصريين والسوريين من قراء المقتطف فأتراهم من يقول انه لا محل فيه لهذا التبذل والمجون ولو كان لي معرفة بالكرتير لكتبت اليه اليوم على ذكر مجر أستاذه ومجره . قد يتغير العصر ويتغير نظر الناس في هذه الامور ويصيرون ينظرون الى تحريمها كما ننظر الى تحريم قطاع الطريق من اليونان وأكل الجبن في الصوم الكبير ولكن لا يهمنا من أمر يلبس لكل حالة لبوسها . ولولا اعتقادي أن رأيكم في هذه الامور مثل رأيي وانكم كنتم تتململون كلما وصلتم الى مجرة من هذه المجر وتودون أن لا يكون الرجل كذلك أو ان لا تذكر عنه تلك المنة لما سألتكم برأيي . وعليه فانا مبيد اليكم الكراس مع هذا البريد راجياً قبول عذري وسامحني ان كنت ذكرت شيئاً يشف عن ظهوري فيه مظهر الفج لان أعده في المنزلة العليا بين المتأدبين بأدب النفس وأطال الله بقاءكم »

فوالله لقد قرأت هذا الكتاب والعرق يتحدر على وجهي من شدة ما خجلت من رجل كنت اوفر لهُ من الحرمة مالا اوفره لغيره . ولم البث ان كتبت اليه بانهُ قد كان في الكتاب من الطامات الكبرى في هذا الموضوع مالا يلبس عليه رداء كما يقال ولقد حذفت منها ما ظننتهُ كافياً ولكنني خشيت اذا استقصيت الحذف من غضب هؤلاء الشبان الذين يسمون أنفسهم « بالمجددين » والذين قد يسخطون عليَّ ويرمونني بقوارص أنا في غنى عنها . على ان ملاحظتك كلها هي في محلها وما كان ينبغي لمثلي ان يتساهل من هذه الحجر والبحر في شيء . ثم أردت أن اماززهُ فقلت «وأما ما قلتهُ عن تأدبي بأدب النفس فلقد كان ذلك ولكن فيما يظهر إقامتنا بأوربة منذ نحو عشر

سنوات قد زعزعت أركان هذا التأدب حتى صرنا نترجم مثل هذه الروايات »

ثم أعدت النظر على الكتاب فحذفت منهُ كل ما خلتُ أنهُ يقع من خاطر الاستاذ صروف وأمثاله الكملاء موقعاً غير مقبول . ووقفت من أجل ذلك كما حسبت في السنة أولئك الشبان الذين نشروا في مخطتي من جراء هذا الامر اكثر من مقالة . حتى قيل لي إن بعضهم عمد الى المواضع التي طويتها وأراد ان يترجمها ويسد بها بزعمه ذلك الخلل الذي ادخلتهُ أنا على الكتاب . ولكنهُ كان يهمني أن يرضى صروف ولا ينتقدني ولو انتقدني بعد ذلك مئات والوف. قيل إن السيد الجرجاني تناظر مع السعد التفتازاني بمجلس غاص وكان السيد شاباً حديث العهد وكان السعد شيخ العلماء في وقته فانتهى المجلس بأن السعد أثر للسيد وان السيد فلج على السعد امام ذلك الجمهور. فساء ذلك تلاميذ السعد ولما انصرف الناس قالوا لاستاذهم : ما كان ينبغي لك ان تسلم لرجل هو في سن أحد تلاميذك. فأجابهم وماذا أصنع اذا كان معهُ الحق . فقالوا لهُ : فكان يمكنك ان تقول لهُ كيت وكيت في الجواب. فقال لهم. ولكنهُ يكون مماحكة ولا يكون من العلم في شيء . فقالوا لهُ : لكن الناس قد علموا الآن ان السيد أعلم منك . فقال لهم : أحب إليَّ ان يعلمني الناس جاهلاً وان يعلمني السيد وحده عالماً. فانا كنت أوثر ان يكون الاستاذ صروف راضياً ولو تعرضت لسخط جمهور لامن الشباب فحسب بل من الكهول ايضاً

ولقد ترجم احد البلغاء من اصحابي تأليفاً فانتقدهُ المقتطف في عبارات معلومة . فلم يمضِ على ذلك ايام حتى قرأت في احدى الجرائد جملة شديدة في الرد على المقتطف تحت امضاء مبهم فعلمت انهُ قد يكون الرد من قلم مترجم ذلك الكتاب او احد اصحابه فاسرعت بالكتابة الى صديقي هذا أعذلهُ على هذا الرد إن كان بقلمه او بعلمه وما اكتفيت بذلك حتى نشرت في (كوكب الشرق) جملة أبين فيها فضل المقتطف واصحابه ورأيي الخاص في العلامة الدكتور صروف. وبعد ايام جاءني الكتاب الذي يلي بعد الترجمة ...

«وقائل بعضهم الآن ان في كوكب الشرق كلمة من الامير عني وأتاني بالكوكب فاذا انا بتاج وصولجان وطيلسان . والصنائع والمفضل والمتفضل عبد كريم لايرى الا الحسنات ويعظمها الحب في عينيه ولست احد كلاماً بل بشكركم» ولما كان في الرد الذي تناول صاحبه به الدكتور صروف اشارة الى كونه نصير الرومي . وهو خبر ناشيء من وهم ككثير من الاخبار التي تعلق بالاذهان ولا صحة لها فقد اوضحت في دفاعي عن الدكتور الخطأ الواقع في هذا الشأن . وقد اضحك الدكتور ما قيل عنه فكتب في جملة ما ذكره : « اما زوبعة فهو يعدني كثير خدم له ومرادي ان اطلعه على ما كتبتم لاقوي حجتي عليه »

لم يذكر لي في هذا الكتاب وهو مؤرخ في ٣١ يوليو سنة ١٩٢٥ انهُ صدر مقتطف أغسطس وقد كتب فيهِ عن رواية آخر بني سراج وقال لي هكذا :

« وطلبت منكم ان تعدلوا عما قلتموه في الصفحة ٣٦٦ قال اوروبة ساثرة مختارة او غير مختارة الى ابتلاع مرافق الشرق ومتى زالت مرافقه من يد ابنائه أمسوا عبيداً فصيره الى الخراب ان لم يتفق وجاله وينهضوا من كثير مما يفرق بينهم ولاسيما الغيرة الدينية ويؤوبوا الى القول المأثور « الدين عند الله المعاملة » . وعسى ان تتمكنوا من هبوط مصر في الشتاء القادم فتواصل البحث في موضوع لا تسعه الاوراق واكرر الشكر الجزيل للامير الكريم »

فكنت في الحقيقة أعلل النفس بآمال لقاء هذا الصديق الكبير طاهر القلب وكبير العقل وواسع العلم. وطالما تخيلت ويا للاسف المجالس اللطيفة التي كنتُ سأحظى بها منهُ ولكن الاجل قضى على هذا الامل وكم من حسرة تنزل مع الانسان في التراب . ولما جاءني نعي المرحوم كان اول ما انطلق لساني بهِ قول اليازجي الكبير

قد كنت انتظر البشري برؤيته فجاءني غير ما قد كنت انتظر

ولبثت اكرر هذا البيت ولا ازال اكررهُ كأنهُ يشفي بعض ما في صدري. ثم لينظر الانسان الى ما كان عليهِ هذا الفقيد من حب الخير ونقاء الوجدان فقد كنت كتبت لهُ فيما كتبت من الاعتذار عن الرد الذي نشرهُ بعضهم عليهِ بسبب انتقادهِ للكتاب المترجم فقلت لهُ : ان المترجم قد يخسر بانتقاد رجل عظيم مثلهُ ليس خسارة ادبية فقط بل خسارة مالية . فكتب الي في مكتوب آخر بتاريخ ٣١ اغسطس سنة ١٩٢٥ يقول لي:

« وأؤكد لكم أني لما قرأت قولكم أن المترجم قد يخسر بانتقادي خسارة مالية تحول غيظي من الى غيظي من نفسي ولا ادري الآن كيف اكفر عما مضى »

ولم يلبث أن نشر في المقتطف قطعة طويلة من الترجمة حتى لا يظن القراء انهُ يغمط فضلها بمجرد انتقاد بعض عبارات . نعم قد كان في حب الخير والبعد عن الشر أمة وحده وكنت قد ذكرت لهُ تصرف الدول التي تزعم انها حاميات الحق والعدل فيما نكثت بهِ من مواعيدها للعرب وما اظهرت من الجشع والطمع بسلب حقوقهم واحتلال بلدانها بعد الحرب الكبرى فاجابني اجزل الله ثوابهُ عن ذلك بما يأتي قال :

« اما رجال السياسة الذين اشرتم اليهم فقد رأيت منهم بعد الحرب ما صغرهم في عيني وجعلهم أحقر من ان اداني منهم من اكبرهم الى اصغرهم ابقاني الله واياكم داخل سياج العلم واطال الله بقاكم »

ولست أكبر هذه العبارة على صحة وجدان الفقيد ولكنني أذكرها في جملة حسناته الكثيرة

لوزان شكيب ارسلان